فجأة موجودا لحما ودما حين غاب ، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة الا اسماء لا رابطة فيما بينها مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان هزيم الى ميدان هزيم آخر ، وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار ، تحت العتبة ، في غرفة اضيق من رئتيه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر . الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية ، كان غاضبا في البدء ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق ، الغبسية كلها حاولت تلك الليلة ان تذكره بالتفاصيل ، ومضت سمرا تصهل طوال الليل وتضرب أكوام التبن بحافريها الدقيقين . الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة الثأر الدفين الذي انتعش . وفي مركز البوليس في عكا فتحت الاضبارات من جديد ونفض عنها الغبار ، وفي ترشيحا تذكره الناس فجأة وارتجف احمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب مـــن كابوس جارح . وتذكر الحج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيدا في الوحل . وتذكر رجال كثيرون قصصا حدثت لهم ولجيرانهم او كادت تحدث لهم أو لم تحدث لهم ، وتنفس رجال عائلة الرخي ونساؤها الصعداء ، وثمة قرى بعيدة عرفت الاخبار ، وقبور سقيت بالماء من جديد وقد تذكرها الناس فجأة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة أخرى.

●

قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفض الغبار عن سترته : سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس . اعرف انه صار ينبغي ان يفتح ملفه من جديد ولكنني سأبقيه هنا ، أتفرج عليه كل يوم ، حتى أراه معلقا . انا لا أصدق انه ظل ساكنا طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن ابصارنا ، لا بد انه سلب شيئا هنا وقتل شخصا هناك وغدا سترى كيف ستتدفق الشكاوى .

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم أرك في حياتي سعيدا كما تبدو الآن ، يخيل الي انك تزوجت .

ـــ تزوجت ؟ أوف ؟ اكثر من ذلك بكثير ، انت لا تعرف شيئا ، لست تدري ماذا يعني أن يسقط عبد الكريم أخيرا .

ـــ اعرف ، كنت تقول ان ذلك يشابه ان تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش .

ـــ انا قلت ذلك ؟ متى ؟

وطوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك أذنيه مفتوحتين على وسعهما ، وقال الميجور ماكلود :

ـــ بعد أن هرب منك آخر مرة ، اعتقد ان ذلك حدث منذ نحو ستة شهور ..

ـــ آه . اكثر قليلا . كان يوما مرعبا ذلك اليوم خلت فيهانني لن افقد مستقبلي فقط ولكن حاضري أيضا .

ـــ كنت مغتاظا جدا يومها ، ويبدو انهم انبوك بلا هوادة الى حد رفضت ان تروي لنا كيف حدث الحادث .

ـــ كان في الواقع سلسلة من المصادفات . كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لنرافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا الى عكا ، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريبا ، وعلى أي حال فقد كنت ما زلت اعتقد يومها انه مختبىء في مكان ما حول طيرة دندن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة ، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل الي انني لمحت رجلا أعرفه ، مر من جواري على ظهر حصان مثلما يمر بك اي رجل في اية لحظة في اي مكان من تلال الجليل ، لم ألحظ وجهه الا لفترة